

بيد الفصحى والعامية

بقلم محمد داود
أستاذ كلية أصول الدين (تطوان)

قليلاً أو كثيراً ، وهذه العربية الفصحى لم يبق لها الآن استعمال فى الأوساط الشعبية والكلام العادى حتى فى قلب جزيرة العرب ، استغناء عنها باللغة العامية بقسميها المثقف والمدارج .

والقسم الثانى : العامية المثقفة - هى التى تتكلم بها الطبقات المثقفة والأشخاص الذين درسوا من العلوم قليلاً أو كثيراً ، ويطالعون الكتب ويقرأون الصحف العربية ، وهذه اللغة يمكننا أن نسميها ، عامية المثقفين أو فصحى العوام ، لأنها تحتوى على كثير من العبارات الفصيحة مع قليل من التحوير أو التغيير ، وهى التى كنا نتفاهم بها مع مثقفى البلاد العربية من الذين اجتمعنا بهم فى مختلف الأقطار ، على ما بينهم من بعد فن الديار ، واختلاف فى الألوان والأمصار .

والقسم الثالث : هو عامية الأميين ومن فى حكمهم من الذين لا يقرأون ولا يطالعون الكتب والصحف ، وهم سواد الأمة العربية وخصوصاً فى البوادم والقبائل التى لم يعصم فيها التعليم ، وهى لغة وإن كانت عريقة فى العامية . إلا أن أصولها أو على الأقل جل أصولها ، لا يخرج عن الأصول العربية أو المبرية إلا نادراً جداً . وتطوان ونواحيها وأغنى بنواحيها (I) قبائلها الجبلية ، لغتها الوحيدة هى العربية أصلاً وفروعاً ، ولكنها بلهجة

اللسان العربى ، ونعنى به اللغة العربية ، ينقسم إلى قسمين : فصحى وعامية ، وهذه هى التى يسميها بعضهم بالدارجة .

وإذا أردنا زيادة التتقيق نقول ، إن اللغة العربية التى يتكلم بها العرب والمستعمرون فن عصرنا هذا ، تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : العربية الفصحى .

الثانى : العربية العامية المثقفة .

الثالث : العربية العامية الدارجة .

فانقسم الأول - العربية الفصحى - هى التى يحافظ فيها على القواعد المتحددة فى علوم النحو والصرف والبلاغة ، وهى لغة القرآن الكريم ، واللغة التى كان قداماء العرب يتخاطبون بها ويلقون بها خطبهم العادية ، وينتظون بها أشعارهم المحفوظة المروية ، وهى التى كتب بها العرب والمسلمون مؤلفاتهم فى مختلف العلوم والفنون فى مئات آسنين ، وهى التى يلقى بها خطباء مساجدنا خطبهم الدينية فى زوال كل يوم جمعة ولا يكاد يوجد حتى من بين عوامنا من لا يفهمها كلا أو بعضاً . وبهذه اللغة تكتب الوثائق الشرعية ، والرسائل الرسمية والعادية ، وإن كان بعض الناس يلحنون فيها

بدراسة قيمة عن تاريخ تطوان فى خمسة عشر مجلداً (اللسان العربى)

(I) الأستاذ محمد داود قد اتحف الخزانة العربية صدر بعضها حافلاً بالمعلومات الطريفة والوثائق الشيقية.

العقيدة الإسلامية الطاهرة ، بثبات الملايين من اخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

نحب اللسان العربي المبين ونعتز به ، لانه هو الذي حفظ لنا - وما زال يحفظ لنا - كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وأصول شريعتنا ، وأحكام ديننا ، وقواعد علومنا ، وأسس ثقافتنا ، وثمرات أفكار آبائنا وأجدادنا ، ونتائج بحوث علمائنا وأدبائنا في ميادين المعارف والعلوم ، ورياض الآداب والفنون .

ولكننا مع هذا وذاك ، لا يمكننا ان نتجاهل الواقع ، أو ان ننكر أن اللهجات العامية هي وحدها السائدة الآن في جميع الاوساط الشعبية بالعالم العربي شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وأن لهذه العربية لهجات لا يكاد عددها يحصر .

وقد تجولت في جل انحاء العالم العربي ، فزرت بنفسى من بلادنا المغربية جل مدنها وكثيرا من قبائلها ، وزرت من بقية البلاد العربية أقطار الجزائر ، وتونس ، وليبيا ، ومصر ، والحجاز ، ونجد ، والعراق ، وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين ، وتحدثت في تلك الاقطار مع مختلف الطبقات ، وأنصت الى مختلف اللهجات ، فوجدت ان الاصل في الغالب واحد ، الا أن الاساليب تقترب من بعضها تارة وتبتعد تارة اخرى . ولكنها على تقاربها وتباعدها ، فيها مسن المفردات والمعاني التي تستعمل فيها في مختلف تلك اللهجات ، ما لو نصح وصقل وضم الى ما في قواميسنا القديمة ، لاجتمعت منه ثروة عظيمة تزداد بها لغتنا الفصحى غنى على غناها ، وثناء فوق ثرائها .

وأرى أن من مهمة مجامعنا العلمية واللغوية ، ولجاننا الثقافية في مختلف هيئاتنا العربية ، ان تعمل في هذا السبيل بجهد ونشاط ، وتستغل النهضات العلمية والادبية القائمة الآن في أنحاء العالم العربي ، كما تستغل وجود الاعضاء الذين فيها من مختلف البلاد

خاصة لا تخرج عن كونها إحدى اللهجات العربية ، وشأنها في ذلك ، شأن باقي اللهجات الموجودة في أنحاء العالم العربي .

واللغة العامية ؟ وخصوصا السداج منها ، فيها لهجات كثيرة تختلف باختلاف الاقطار ، بل تجد فنى القطر العربي الواحد عدة لهجات قد تعد بالعشرات ، تلك هي وضعية اللغة العربية الآن في العالم العربي الذي قمت شخصيا بزيارة جل أقطاره ، وتحدثت مع كثير من علمائه وأدبائه ، واتصلت بعاملته ومختلف طبقاته .

نعم لقد مرت ظروف قام فيها بعض الشواذ في بعض الاقطار الشرقية ، متأثرين بأوساطهم المحدودة ، بالدعوة الى الغاء العربية الفصحى واحلال العامية محلها ، ولكنها دعوة باءت بالفشل ، لانها من الجهل والغبوة بمكان . فالفصحى لها مكانتها ومواطنها ، والعاميات المختلفة لها مواطنها وأوساطها . ولا تحل إحدى اللغتين محل الاخرى بحال .

ونحن لا نتأخر لحظة عن رفع أصواتنا ، مؤكدين أنه مهما كانت الظروف والاحوال فان العربية الفصحى هي اللغة التي لها قواعد محفوظة محدودة يعرفها الناس ويقفون عندها في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي اللغة التي يتحدث بها أهل العلم والادب في مجالسهم العلمية والادبية ، وبها يؤلفون كتبهم وبحاثهم في مختلف العلوم والفنون ، وبها ينشرون الصحف والسيارة فتنتشر في بقاع الأرض ويقراها الملايين من الناس في جميع القارات ومختلف الاوساط ، ولا يمكن لاية لهجة من اللهجات العامية ان تقوم مقامها ولو كانت في نظر أصحابها من الحلاوة والخفة بمكان .

ونحن من انصار العربية الفصحى والداعين لتعميمها ونشرها بكل ما يمكن من الوسائل لانها هي العروة الوثقى التي تربطنا بعشرات الملايين من اخواننا العرب الابرار ، في مختلف البلاد والاقطار ، كما تربطنا

العربية ، فتجمع ما فى مختلف اللهجات . من الجمل والمفردات ، وتدرس ذلك على الطريقة الحديثة . وتستخرج من الجميع ما ترى فيه فائدة ، وتقرره تقريرا وتضه ضما الى معاجم الفصحى يستعمله كتابنا وأدباؤنا شرقا وغربا ، وذلك طبعا بعد أن تحذف من تلك المعاجم ما فيها من حشو او ما هو كالحشو الذى لم تبق له أية فائدة ، وانها لو فعلت ، فستجد من الفوائد ما لم يخطر لها ببال حتى الآن .

لقد سررنا كثيرا عندما سمعنا عن مجمع اللغة العربية الذى مركزه بالرباط ، استغفر الله ، بل بالقاهرة ، ذلك المجمع الذى على الرغم من اعجابنا به واشتياقنا للاستفادة من أبحاثه وانتساجه ، لا يصلنا لا ما جل ولا ما قل من مطبوعاته المتكدسة فى مخازنه . لقد سررنا عندما سمعنا أن فيه لجنة خاصة كلفت بالبحث فى اللهجات العامية فى مختلف الاقطار العربية . وهى لجنة نؤمل أن يكون لها مسمى حقيقى ، وأن تكون لجنة حية عاملة غير عاجزة كما هو الشأن فى كثير من اللجان نشيطة تستفيد وتفيد .

كما نتمنى أن يكون صدور هذه المجلة ، واللسان العربى ، فتحا جديدا لسيدان تبارى فيه أقلام علمائنا وأدبائنا للسير بلغتنا نحو الكمال والازدهار .

اننا نرى ان فى مرونة اللسان العربى ما يجعله يتقبل بارتياح ، كل ما يضاف اليه من المفردات والجمل . مما لا يخالف الاصول المقررة ، والقواعد المحكمة المسطرة ، فلذلك ندعو ونحض على جعل لغتنا تساير بقية اللغات الحية الناهضة فى مختلف الميادين ، وان يدخل عليها ويضم اليها حتى من المفردات العامية ما يزيدنا نموا واتساعا ، وذلك زيادة على المصطلحات العلمية الحديثة التى لا غنى عنها ، ولا محيد منها . ونحن بهذا لا ندعو لانزال اللغة العربية الفصحى من منزلتها السامية وجعلها خليطا من مختلف اللهجات

العامية ، بحيث يصير عملنا انما هو امانة للفصحى واطراف لهجة عامية جديدة الى ما هو موجود من اللهجات كلا . وانما نقول ونتمسك بوجود المحافظة الكاملة على ما هو مقرر معقول من الاصول والقواعد السليمة فى علمى النحو والصرف ، وعلى ما هو محدد مقبول فى علوم البلاغة التى هى المعانى والبيان البديع . فون السماح بما يودى الى اللحن او مسخ الاسلوب العربى المتين والديباجة الرائعة والجملة والاساليب التى تمتاز بها لغتنا . ومع ذلك ندعو لصقل الالفاظ العربية العامية التى لا نجد من بين مفردات الفصحى وجملها ما يدل على معانيها ويقوم مقامها ، مثل نقل الالفاظ الاجنبية الجديدة التى تدل على المستحدثات العلمية والمصطلحات الاجتماعية ووضع الجميع فى قالب الفصحى وزنا وتنسيقا ، بحيث تصير تلك الالفاظ مربة مفصحة مثل ما نقل قديما الى العربية من اللغات الفارسية وغيرها . وانا لنجد فى القرآن نفسه وفى كلام نبينا العربى وكلام فصحاء العرب قديما وحديثا من ذلك المنقول الشيء الكثير .

نحن ندعو لان يستغل ما فى لغتنا الفصحى من مرونة فيدخل عليها ويضاف اليها كل ما يناسب عصرنا وتقدمه العلمى والأدبى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، من مفردات واصطلاحات وغير ذلك مما لا يضرب بلغتنا بل يزيدها اتساعا ونماء ، وبهجة وجمالا .

والواقع الان ، ان اللهجات العربية العامية فى مختلف اقطار المروبة يعد جلها من صميم اللسان العربى وفى نظرى ان البحث فى تلك اللهجات انما هو من البحث فى اصول لغتنا العربية وما طرأ عليها من تقلبات واطوار . وما طعمت به او ما ينبغي أن تطعم به من مفردات ومعان وأفكار .

ونحن لا نرى ان الاقتباس والنقل من مختلف

وتستعمل في لهجة هذه المدينة مسن بسن المترادفات المستعملة في الفصحى .

الثالث : معجم مرتب على الحروف الهجائية . نذكر فيه المواد والمفردات وما تستعمل فيه من المعاني في هذه المدينة ونواسيها من القبائل الجبلية . وربما استشهدنا في ذلك ببعض الامثال العامة المستعملة في هذه المدينة كما كان علماء الفصحى في القديم يستشهدون بالشعر العربي القديم . وقد نزع ذلك ببعض الفوائد التي تصور بعض نواحي الحياة الاجتماعية والفكرية في هذه الانحاء ومن هذا القسم الثالث يعرف ما لا يزال حتى الآن مستعملا في هذه النواحي من الالفاظ العربية . وما صار منها الان في حيز الاحمال . والآن ، وقد صدرت مجلة «اللسان العربي» التي اتمنى لها التوفيق في القيام بالسؤال عن لغتنا وثقافتنا - فاني اساهم في مضارها الفسيح بتقديم نموذج او نماذج من أبحاث المتواضعة .

وهذه قطعة من القسم الثالث من الكتاب المذكور الذي ما يزال قيد التأليف ، وهي وان كانت لا تزال أيضا في حاجة الى مراجعة وتنقيح ، الا انها - كما قلنا - نموذج نود بكل تواضع أن نسمع رأي علمائنا وكتابنا المشتغلين يمثل هذه الموضوعات . فن نهجه واسلوبه ما دام الكتاب لم يتم تأليفه ، فهو قابل للزيادة فيه والنقص منه . والله سبحانه هو المستعان .

(يتبع)

اللهجات الى الفصحى ينقص من قدرها او يؤثر في مكانتها الرفيعة التي تحتلها بين مختلف اللغات واللهجات ، بل انها بذلك تصير بين باقي اللهجات العربية كالجوهرة الثمينة في عقد اللؤلؤ والمرجان . او الدررة البتية في قلائد العقيان .

وبهذه المناسبة اذكر انه قد مر على وقت كنت فيه معجبا بالبحث في مختلف اللهجات . والمقارنة بسن اساليبها ومعانيها ، وجمالها ومفرداتها . وما تجتمع فيه او تختلف من الاصول ، وما يلحق كلماتها من لحن او تصحيف ، أو حذف أو تحريف . وكنت ارى أن ذلك الموضوع لذيذ لطيف ، والبحث فيه ممتع طريف .

وكنت - بالفعل منذ بضع عشرة سنة - وربما كان ذلك قبل تأسيس بعض المجمع العلمية - قد قمت بمحاولة فردية لتأليف كتاب عن اللغة العامية في المدينة التي ولدت بها ، ونشأت وقضيت شبابي وكهولتي وبعض شيخوختي فيها ، وهي مدينة تطوان التي هي قطعة من صميم البلاد العربية في قطر المغرب . وهذا التأليف يحتوي على ثلاثة أقسام

الاول ، في قواعد عامة تحاذي قواعد العربية الفصحى ما هو مقرر معروف في علمي النحو والتصريف .

الثاني ، فقه هذه اللغة ، أي تحديد المسميات ومعانيها وتبيين الالفاظ الخاصة التي تسدل عليها